بسم الله الرحمن الرحيم

منتدى الرِّواية
المِنصَّة الرَّقمية لمناقشة الرِّوايات السودانية

الندوة رقم ٦
مناقشة رواية (روحسد)
للروائي السوداني محمد الطيب

رواية روحسد "عمق الابعاد النفسية، الارباك ووحل التوهان"

بقلم: أحمد مجذوب الشريفي

لا أشك مطلقا أن الرواية تجربة ناضِجّة أخلص فيها محمد الطيب (كروائي) كثيراً الا أنني وبداية لا أخفي مدي ما أصابني من إرهاق نفسي و(بدني) و أنا أصارع لإتمام قراءة هذه الرواية، التى غاصت بي وأدخلتنى في دوامات من القلق ودوامات أخري من التوتر لكى أجد مدخلا مفتاحيا يقودني الى فهمها، تقفزت بين السطور بل الصفحات ثم عدت الى حيث بدأت، فأصبحت في حالة توهان أبحث عن (فكرة ما) بنيت عليها الرواية فإذا بي أجد نفسي أغوص مرة أخري في وحل فلسفي حينا و علم نفس شديد التعقيد حينا آخر، فأيقنت أن الرواية كتبت (للخاصة) وأنا لست منهم، اولئك الذين لبعضهم

اهتمامات فلسفية، وآخرون لهم حب الغوص في النفوس البشرية (علماء النفس) رغم أنها كتبت بلغة واضحة الا أن خلف اللغة البسيطة رموز تحتاج الى تفكيك ، خاصة أن الكاتب تعمد أن يبعد القارئ عن نقطة ما ثم يعيده اليها بطريقة (الارباك) خاصة عناوين الفصول كأنها في ميدان تمارس فيه رياضة التبادل وهي تلك اللعبة التى يصل فيها اللاعب الى نقطة محددة ثم يسلم الشارة الى زميله الذي ينتظره مستعدا لينطلق ويواصل ليسلمها لآخر متأهبا يقظا، وقد تعود الشارة الى اللاعب الأول حسب الأشواط ، وهذا ما أشعرنى ببعض الإرهاق من محاولات الربط بين المحاور و القراءة المتعددة لسبر أغوار النص ... أقلقت نومي وتداخلت أحلامي مع واقعي.

فهي ومع بساطتها تتركك معلقا بين السماء والأرض،عاجزا محتارا هل تواصل قراءتها، أم تكتفى؟ هل توصي غيرك بقراءتها أم لا؟ .

الرواية أحداثها بطيئة في معظم فصولها، تشعرك بالملل لأنها افتقدت الى الحيوية، ثم بدأت بعض مفاتيح تظهر لتفتح بعض أبواب قد استعصي فهمها سابقا، لأجد أمامي (عالما من الروايات) كتبت في رواية واحدة، أحيانا أشعرتني بتفاصيل كثيرة غير مناسبة، لهذا إستغرقتني الرواية، ملأتني بالتفاصيل، اذا أنا أمام رواية تحتاج و(تحتاج) للتركيز، فأنت تقرأ رواية موغلة في النقاشات الفلسفية والنفسية والاجتماعية و .. و .. الخ، عمقها نفسي بامتياز، أزمة نفسية نتيجتها قتل الأم، ثم حب وامرأة وزواج ومال و(رواية)، فقد ارتكز الكاتب على نفسيات بعض شخصياته (المثقفة) .

العنوان (روحسد)

عنوان مثير للجدل تميزبالكثافة والغموض, وكأن الكاتب قد تعمد ترك المجال لتوارد القراءات والتأويلات ذات المفاهيم المتعددة الأبعاد والمقاصد حول ماهية هذا العمل الروائي وغايته، وقد تلبسته الشخصيات التي كتبها ولم يستطع التملص منها حتى بعد الانتهاء من الكتابة.

بعد العنوان (الملفت، المربك)، انفتح السرد فيما بعد على قصة رجل يحاول الهروب من ماضيه ولكن لا يستطيع الإفلات منه وامرأة هي الحقيقة الوحيدة في حياته ولكنها تركته والسبب أنه كان يهرب من طين الجسد الذي وحل فيه كثيراً ناشداً نقاء الروح ومن تنهض عندهم الروح أولئك الذين كتب عليهم الشقاء إلى الأبد.

وفهمي يقول بما أن الرواية قد تمت فيها جريمة قتل و أي قتل (قتل الأم) فهذا يفتح مساحات واسعة من ما سيحدث بعد الجريمة، فقتل الأم ليس سهلا, وهذا كما أشرت سابقا فتح مساحات واسعة لعلم النفس فظهر لنا خيري وكأنه قد تلبسته روح والدته التى قتلها وهذا طبيعي، لهذا في تقديري جاء روحسد مناسبا لحالة التلبس هذه ، فيما ظهرت دلالات أخرى و كثيرة تشير إلى حالات الحسد ضد آخرين والرواية مليئة بهذا، فكأن الروائي يشير إلى انهزام الروح نتيجة لقتلها روحاً أخرى وإن ظهر لنا عكس ذلك ولكنه أمر ظاهري.

فأرى أن العنوان قد جسد هاتين الظاهرتين (الروح المقتولة و(الحسد) وهما العقدتان اللتان حبكت حولهما قصص و أحداث الرواية، وفى تقديري أن الكاتب نجح جدا في إحداث ما يلزم من تشويق وإخفاء متعمد لهاتين العقدتين وما أحدثه من تشويش على عقل

القارئ حتى أصبح في حالة توهان، وهو نفسه التوهان الذي حدث لخيري و َما انفك منه.

رغم أن الكاتب لم يظهر لنا - أو لعله أظهر ولم ينتبه له- حالات ما قبل القتل وما بعده (النفسية) والظاهر شعور القاتل لأمه، وكأنه قد قتل بطة وهذا غريب.. فعلى سبيل المثال أن المرضى النفسيين المصابين بالانفصام خُصُوصَاً يكون عندهم ضلالات غَالِبَاً ما تكون تجاه أَقَارِبهم مثل الأم، فهل لذلك أول ما سنحت له الفرصة ارتكب جريمة القَتل ضد أمه؟. هذا سؤال أولي.

أم هو الفصام الدهامي وهو مرض من أمراض الدهماء يفقد فيه الإِنْسَان التواصل مع الحقيقة والمجتمع والناس، ولا يشعر أنه مريض، ويَحْصُل تدهور في القدرات المعرفية والسلوك والأفكار يصير عنده ضلالات وأفكار ثابتة في مخه على أنها حقيقية وهي غير حقيقية، فيعتقد مثلاً أن أمه تضع سماً في الأكل، هذه الأفكار المغلوطة تكون ثابتة عنده، وغير قابله للنقاش، ويكون عنده هلاوس سمعية وبصرية يسمع ويرى أشياء غير موجودة، ويتخيل أصواتاً تأمره بالقتل، هذه الأسئلة وغيرها ، كما أن هناك عوامل أخرى غير التفكير الوهمي، مثل تاريخ من الاعتداء الجنسي، أو الغش الذي يرتكبه الابن ضد الأسرة، في الأدب الشرعي.

كان على الكاتب أن يجتهد قليلا فيها ليضفي مسحة ايجابية على الرواية تبرر الفعل، خاصة أننى بصدد عمل يبحث ما في داخل النفس بالتالي محاولة (تحليل نفسي) حيث كان يجب أن لا يترك للقارئ ليشطح، وأخر لينطح، ولنعرف من خلاله أن العلاقة بين التحليل النفسي والأدب علاقة عضوية، وقد كانت هذه عقدة شائكة تمنيت لو غاص فيها بتفاصيل أكثر، ويبقى السؤال هل بقتله أمه ضحية؟ أم مجرم قاتل؟

هناك تعريفات مختلفة لمصطلح قتل الأب أو الأم، مع وجود أكبر تعارض فيما إذا كان لا بد من تعريف القتل بأنه جريمة أم لا (عادة قتل مع سبق الإصرار) لوصفه بقتل الأب أو الأم.

ويقدم مقال بيري وليكتينوالد وماكينزي اقتراحات للآباء والأمهات والاختصاصيين الاجتماعيين؛ والمستشارين والأطباء النفسيين الذين يحاولون التوسط في الأسرة التي تتشابه دينامياتها مع حالات القتل التي يكون فيها الغش والاحتيال ضد العائلة سابقًا لقتل الأب أو الأم.

حول عنوان الرواية قرأت لبعض النقاد وإشارتهم (لروحسد) بأنها علاقة ما بين الروح والجسد فطفقت أبحث حتى وجدت ما كتبه الدكتور مصطفي محمود يرحمه الله فيما كتبه في (كتاب الروح والجسد) وهو كتاب تحدث فيه عن طرفين نقيضين يتصارعان وبينهما يعيش الإنسان في كبد تحلق به الروح في علياء المعاني السامية، ويقيده الجسد الفاني بأغلال محكمة من شهوات ورغبات.. هذا الصراع الذي تكلم فيه رجال الدين والفلاسفة والمفكرون والمتصوفون.. وحسمه لصالح الروح الأنبياء ومن خطا على نهجهم، ولكن ماذا نعرف عن هذا الصراع ودواخله؟.. قد يكون الكثير وقد يكون أقل القليل، ولكننا حينما نقرأ ما كتب الدكتور مصطفى محمود عنهما، لابد وأننا نرى أشياء جديدة ونتابع القصة من زوايا مختلفة، فالدكتور "مصطفى محمود" بارع في الربط بين الواقع بتفاصيله الأرضية، والتعبُّد في محراب العقيدة والفلسفة. وهو ما يقدمه للقارئ دون نغمة نشاز، أو بتر في الأفكار، وإنما يقدمه في حالة انسيابية متصلة من الكلمات، والتي نجدها في هذا الكتاب تتحدث عن الصمت، والروح، والجسد، والماء، والحب، والصدق، والكذب، والجنة، والجحيم، والاصنام، وغير ذلك الكثير مما يدخلنا في عالم "مصطفى

محمود" الفريد، ويمنحنا جرعةً مكثَّفة من الروحانيات المدعومة بحقائق الواقع والعلم.

والحقيقة أن الحروف تحجب ولا تكشف.. وتضلل ولا تدلل.. وتشوِّه ولا توضح.. وهي أدوات التباس أكثر منها أدوات تحديد"

عموما أرى أن العنوان كان موفقاً في الاختيار له، لكل ما سبق وحسب فهمي وتقديري.

الحبكة و السرد:

الرواية جاءت بطابع سردي مختلف من حيث اللغة والشكل والمضمون على شكل (نص داخل نص)، (رواية داخل رواية)، مفتاح يفتح بابا، ينغلق الباب فيتم تناول مفتاح آخر لباب آخر فتظهر شخصية ما ثم تقدم فيه كل شخصية نفسها بنفسها (الراوي – الشخصية) في وحدة سردية متضمنة التعريف بروايات وكتاب ومحطات إعلامية مرئية وأخرى مكتوبة، أجرى عليها الروائي بعض التعديل والتغيير والتحوير لتبدو لنا خلقاً جديداً، لا علاقة له بالأصل، ليتسنى له رسم شخصياته كيفما يشاء، يعبر من خلالها عن رؤية جديدة وموقف روائي، تركز العمل على شخصية الروائي (خيري عبد العزيز صاحب الثماني روايات التافهة) من المفارقات أن الشخصية الرئيسية للعمل كانت بلا صوت روائي وإنما صدى لأصوات الأبطال الروائيين في العمل نفسه، أم أن "الحقيقة تجول في هذا البيت وماوراءها محض خيال"

كل هذا جعل للرواية حالة من التفاعل الروائي الذي دمغ أفقها بصبغة البحث المحموم عن ماهية العلاقة بين المؤلف ونصه، وتمكن

من إدراكنا لفارق دلالي على قدر بالغ من الانسجام النظري مفاده أن الألم الروائي كالألم الحقيقي، قيمة إنسانية متعلقة بحياة البشر ومتصلة بالذاكرة والعواطف والسلوك، وتستمد وقعها من الطبيعة المعقدة للكائن البشري سواء كان كاتباً أو مكتوباؤ، وكأنه جمع شخصيات الرواية في جزيرة ما وترك لهم العنان ليحكوا ما يحدث معهم كل من وجهة نظره، كل منهم يرحل من طين الجسد اللازب، لكن بطريقته الخاصة.

الرواية كتبت في قالب تشويقي وتميزت بالحبكة عبر السرد حيث اهتم الروائي بتقنية تداخل قصص الشخوص وعلى هذا أجد أنها مزيج بين الرواية النفسية التي تسبر أغوار النفس البشرية ومألاتها، وكذلك اجتماعية من حيث استبطان شخوصها لتجارب ماضية عميقة تبرر سلوكهم الآني. في سرد غير ملتزم بحيِّزٍ زمانيٍّ ومكانيٍّ محدد. تتميز أيضاً بتعدد الأصوات الساردة. التي تكون فيها عدة أصوات، أو وجهات نظر مختلفة، تتفاعل بشكلٍ مختلف، وتبدو عشوائية، بينما تقود في النهاية لفهم وتبرير تقلبات شخوص العمل.

اعتمد السرد في الرواية في أجزاء كبيرة منها على مناجاة نفسية طويلة يعيشها الشخصوص الرئيسيون في الرواية، وتشكل هذه المناجاة لازمة الرواية، وموجة للرواية، مع تاثيرها الواضح على الرؤية السردية. علاقة (رونق) بذاتها والآخر مثالاً.

الأبعاد النفسية للرواية عميقة جداً. مأساة رونق مردها لما يعرف في علم النفس بعملية الانعكاس، بما فيها من فعل مزدوج تعد أساساً للادراك الجدلي للإنسان فيما يتعلّق بصورته التي تتيح له معرفة ذاته "الأنا" من خلال الأنا الأخرى "صورته" التي تراه في صورة والدته الهاربة.

خلتْ الرواية من حالات الصراع الظاهر، وإن وجد فهو عادي لا يرقي إلى إحداث حالات من التوتر والارتياح في نهايته، وهذه

إشكالية معظم الروايات السودانية، التي أصبح النص (المسطح) ميزة لكل أو أغلب الروايات، وهي نقطة تحتاج إلى مزيد من البحث.

الرواية دراسة نفسية تناولت مجموعة من (العقد) النفسية لهذا في تقديري لم يتطوّر الصراع، فلم تصل إلى ذروته، لهذا لم تنته بحالات مأساوية تعبِّر عن ذروة نفسية، تقود إلى الإحباط و الكآبة والنهايات المعروفة أدناها الجنون.

وهذا يحيلني مباشرة إلى سؤالي المتكرر حول أثر مهنة الكاتب على كتاباته، فالكاتب (صيدلى) وليس مختصاً في علم النفس بالضرورة، صحيح أن مهنته قد تتناول بعض معارف نفسية (العلاجية خاصة)، كما أن قراءاته كثقافة وبحثه قد يمكنه من الالمام ببعض ثقافات "خاصة" تساعده في كتابة مثل هذه الروايات التي تحتاج إلى تبحُّر وعلمٍ معرفيٍّ وثقافة واسعة، وهذا ما أفلتْ منه كثيراً أو بعض الخيوط، فترَك بعض الإجابات لمعرفة القارئ.